والسكر . وهما لفظان قاسيان ، ولكن العقاد معلم حاد لا يخشى اللوم . فالجمهور يحول كل ما يلقفه أو يفهمه إلى صورة بعيدة عن الرزانة والحياء ، ويصبغ كل شيء بصبغة الفتنة والضوضاء .

هذا بعض تشخيص الأستاذ العقاد لأزمة الفهم فى عصرنا . هذه الأزمة العميقة التى تتمثل فى الولع المنتشر بعوامل التثبيط والركود . وباسم الحرية والشعبية يندر أن تجد صورة الهم الذى يبعث على الحث والنشاط ، وينفصل الفهم عن القيم المرجوة . فإذا رأيت المثابرة والثناء نادرين ، وإذا رأيت العفة والحياء والرزانة والجد النبيل مفقودا بين الأكثرين فاعلم أن هناك خطأ أساسيا فى الفهم . ومن ثم كانت الاتجاهات النفسية والأخلاقية دليلا واضحا على مزايا الإدراك وعيوبه . وسوف نعنى هنا بوجه خاص ببعض طرائف هذه الملاحظة ؛ فالناس يضن بعضهم على بعض بالثناء . والثناء حاجة أساسية إذا غابت دل ذلك على غيبة الفهم الناضر بوجه من الوجوه . وكلمة الثناء تعنى العطف أو التعاطف . والعقاد عاش حياته يتأمل هذا التعاطف وثمراته فى تحليل الشعر وفهم الشخصية على السواء . عاش العقاد يربط بين التعاطف والفهم بطريقة لا تخفى على من يتأمل وحدة نتاجه المتشعب . لنقل إن العقاد مولع ببحث عقبات الفهم . وعقبات الفهم جزء أساسى من حركة النهضة .

إذا غاب التعاطف وجدت الميل المشهور إلى المقارنة . يقول العقاد أكثر الناس يلومون زيدا لأنه لا يكتب مثل عمرو ، ويلومون عمرا لأنه لا يكتب مثل زيد . الناس يقرأ بعضهم بعضا قراءة غريبة ، لا يشقون على عقولهم ، ولا يألفون شخصية الكاتب وأسلوبه ونظرته إلى الحياة . وواضح أن الإلف شيء أكبر من القراءة السريعة ، أكبر من الأفكار السابقة والنزوات التى تتطلع إلى الإشباع . الإلف خروج من عالم ضيق مقرر ، وجهد مبذول فى الحساسية والإدراك والتعاطف .

ومغزى ذلك أن الشعبية والحرية مسئولتان عن شر غير قليل . الإلف ضرورى من أجل الفهم ، الإلف يعنى أنك تقرأ النص والسلوك أكثر من مرة ، أنك تعطل وقتا ما قد يعن لك أول وهلة ، أنك تعطى للنص أهمية ، أنك تصمت لا تتساءل أو لا تتعجل السؤال . الإلف يعنى إلى جانب ذلك أنك مستعد للثناء لأن الثناء هو تخطى العقبات الشخصية والآراء المعوقة من أجل المشاركة فى عالم من حقه أن يظفر بالرعاية والعناء .